مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية
Eissn : ...-.... Issn : 2353-043X
المجلد 07/ العـدد 01: (2020)، ص: 30- 49

التأويل البعيد للنص القرآني بين النظر في العواقب والانتصار للمذاهب

The remote interpretation of the Quranic text Between looking at the consequences and victory for the doctrines

د. سهام داوي
كلية العلوم الإسلامية/ جامعة الجزائر. 1 -الجزائر.

الملخص:

هذا البحث من الأهمية بمكان في إطار الدراسات القرآنية لارتباطه الوثيق بتفسير القرآن الكريم، حيث هدفنا إلى بيان أصناف المتعاملين مع النص القرآني ممن ذهبوا في تأويل بعض الآيات إلى أبعد ممّا يشير إليه ظاهر النص من معنى. فمن هؤلاء من كان غرضه رعاية المقاصد، والنظر في عواقب الأحكام التي تحملها الآيات القرآنية، ومنهم من فعل ذلك انتصارا لمذهب يعتنقه، وتطويعا للنص القرآني بما يدعّم به اتّجاهه، ولو كان ذلك متناقضا مع الدلالة الواضحة له، وهذا مذموم ، فالقرآن الكريم على سعة معانيه لا يُتعامل معه إلاّ على النحو الذي قرّره العلماء، والعاصم من الزلل في ذلك هو التزام ضوابط التفسير.

الكلمات المفتاحية: التأويل، القرآن، المذهب، الاعتزال، الحداثة.

Abstract:

This research is of great importance in the context of Quranic studies because it is closely related to the interpretation of the Holy Qur’an, through which we aimed to clarify the categories of those dealing with the Qur’anic text who went in the interpretation of some verses far beyond what the apparent meaning of the text indicates. Among those whose purpose was to take care of the purposes, and consider the consequences of the rulings carried by the Qur’anic verses, and some of them did that in triumph of a doctrine that embraces it, and adapting the Qur’anic text to support its direction,

even if that is inconsistent with the clear indication of it, and this is reprehensible, for the Holy Qur’an is broad in its meanings It is not treated with him except in the manner decided by the scholars, and the capital of error is that of adherence to the controls of interpretation.

Key words: Interpretation, The Quran, Doctrine. Mu'tazilah, Modernity.

*** *** ***

المؤلف المرسل: سهام داوي

مقدمة:

الحمد لله منزل الكتاب، الذي إليه المآب، نزّل القرآن الكريم بلغة العرب فسحرهم ببيانه، وخاطبهم بما يفهمون فكان لهم في تلاوته والتزام هديه الأجر والفضل والنجاة، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، الذي أدّى الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح الأمة في دينها ودنياها، فتركها على المحجة البيضاء لا يضلّ عنها إلاّ هالك:

وبعد:

لقد تعبّدنا الله تعالى بتلاوة القرآن الكريم، ورتّب على ذلك الأجر العظيم، وجعله دستورا لحياتنا ما التزمنا بهديه إلى يوم الدين، فشرّع لنا من الأحكام ما يضبط عباداتنا ومعاملاتنا، وروى علينا من القصص ما يبثّ العبرة فينا، وأرشدنا من الأخلاق إلى ما يزكّينا ولا يشقينا.

وإنّ لغة القرآن الكريم وإن جاءت على ما عهده العرب في كلامهم إلاّ أنها تحتاج إلى تفسير أهل العلم، وتنبيههم لجلاء مدلولاتها، وضبط مفاهيمها، فبقدر ما جاء عليه من الوضوح، حمل في بعض مفرداته وتراكيبه غموضا وخفاء في المعنى تكفّل بشرحه وعرض مدلولاته أهل العلم ممّن توفّرت فيهم شروط التفسير.

ولم يأت التفسير في اتجاه واحد من حيث المنهج، وكشف المعاني، فكان التجديد ملازما للمفسّرين عبر العصور، ولم يكتف البعض بظواهر المعاني ليغوص في تأويل بعيد قد يسلم أحيانا لجريانه في اتجاه واحد مع سابقيه، واستناده إلى دليل صحيح يقوم عليه، ولكنه يتعسّف في أحيان كثيرة لما يلازم القائمين به من هدف الانتصار للمذهب الذي ينتمون إليه، وحمل النص على الوفاء بمعانٍ لا استقامة لها ضمن السياق الذي يضمّ الآيات، ولذلك ارتأيت الخوض في هذا الموضوع، وانطلقت فيه من الإشكالية الآتية:

إلى أيّ حدّ يسلم الآخذ بالتأويل البعيد للنص القرآني، وما محاذير الانفلات فيه؟

ويتطلّب ذلك الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما المقصود بالتأويل البعيد للنص القرآني؟
- كيف خدم التأويل البعيد المقاصد القرآنية؟
- ما أبرز نماذج الانتصار للمذاهب في تأويل القرآن الكريم؟

وإنني بإجابتي على هذه التساؤلات الخادمة للإشكالية المطروحة إنما أرمي إلى الإسهام في تنوير المسلمين بخصوص المعاني التي يحتملها النص القرآني وتلك التي أقحمت عليه لأغراض ليست خالصة. مع التحذير من الجرأة على كتاب الله تعالى، ومخالفة ما اجتمعت عليه كلمة العلماء المسلمين، والتنبيه من خلال ذلك إلى خصوصية القداسة التي تقتضي فهم خطاب الله تعالى وفق الساري من مقاصد هذا الدين التي تستوعب التجديد، وترفض التجميد، ولكنها لا تسمح مع ذلك إلاّ بالسليم المفيد.

من أجل ذلك بسطت الحديث في هذا الموضوع عبر عناصر متلازمة، مستهلّها التعريف بالتأويل، وبيان القريب منه والبعيد، وعرض نماذج لاجتهادات

العلماء في تقرير المقاصد الشرعية من خلال اللجوء إلى التأويل البعيد للنصوص، في مقابل تيار معاكس يلوي أعناق النصوص انتصارا للمذاهب والأهواء، بداية بالمعتزلة والباطنية، ومن ثمّ الموغلين في إثبات الصبغة العلمية، وصولا إلى تيار الحداثة الذي يحاول مسح كل جهود السابقين، والإتيان بما يزعمون به التجديد في الدين.

ولقد خدمني في ذلك تكامل المناهج المساعدة من وصف عرضت به الظاهرة، واستقراء فتشت بمساعدته على الشواهد الدالة على ذلك، والتحليل الضروري لتجلية المحمود من المذموم، وصولا إلى النتائج التي خصصت لها خاتمة البحث.

أوّلا: مفهوم التأويل وأنواعه:

1.1 . التأويل في اللغة:

التأويل في اللغة أصله من الأول، ومعنى قولهم: ما تأويل هذا الكلام؟ إلام تؤول العاقبة في المراد له. ويقال: آل الأمر إلى كذا، أي صار إليه.[1] وعلى هذا المعنى جاء اللفظ في القرآن الكريم، حيث ورد في عدّة مواضع، منها قوله تعالى:" **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**"(آل عمران7). فيقترن المعنى بالغيبي ممّا يخفى على الناس، لحدوثه مستقبلا، أو لأنه من المستور عنا.

2.1. التأويل في الاصطلاح

ذكر العلماء التأويل دائما في معرض المقارنة بينه وبين التفسير، فمنهم من جعلهما بمعنى واحد، وفي طليعتهم الإمام (ابن جرير الطبري) الذي حفل تفسيره باللفظ مقترنا بمعنى التفسير، ومنهم من فرّق بينهما باعتبار التفسير متعلّقا بالرواية، والتأويل متعلّقا بالدراية، أو باعتبار التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلاّ وجها

[1]. الزركشي، البرهان، 148/2.

واحدا، والتأويل توجيه لفظ متوجّه إلى معان مختلفة، بما يظهر من الأدلة. وغيرها من الفروق التي أتاحت عددا كبيرا من المفاهيم تُطلب في كتب علوم القرآن[2].

3.1 . أنواع التأويل:

يقوم التأويل على أسس، وينضبط بضوابط عاصمة من الزلل فيه، وهو بناء على ذلك ليس في مرتبة واحدة من التقدير، حيث نميّز فيه أنواعا، هي:

1. **التأويل الصحيح**، وهو التأويل الذي استوفى الشروط المتفق عليها من قبيل:

. أن يصار إليه عند الحاجة الملحّة.

. أن يوافق القواعد اللغوية والنحوية.

. ألاّ يُحمّل النصّ المؤوّل أكثر ممّا يحتمل.

وهو نوعان:

آ. **التأويل القريب**، وهو ما لا يشترط له دليل قويّ لقربه من الفهم، كتأويل مكر الله بالكفار بردّ مكرهم في نحورهم.

ب . **التأويل البعيد**، وهو ما يشترط له دليل قويّ يبرّر قبوله لبعده عن الفهم، كتأويل «الشاة» في حديث: (في سائحة الغنم إذا بلغت أربعين شاةٌ) بمقدار الشاة وقيمتها.

2. **التأويل الفاسد**، وهو التأويل الذي لم تتحقق فيه المبرّرات اللازمة لقيامه، وذلك كتأويل «البقرة» في قوله تعالى: **"إنَّ الله يَأْمُرُكم أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً"** (البقرة 67) بأنها رجل يبقَرُ عن أسرار العلوم أي يشقّها ويسبر أغوارها. بل وتأويل الشيعة للبقرة في هذه الآية بأنها عائشة رضي الله عنها وحاشاها.

---

[2] . السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، 2261/6 ـ2262.

وفي هذا السياق يقول الدكتور القرضاوي:" ولا توجد مدرسة من المدارس الإسلامية . في الكلام أو الفقه أو الأثر أو التصوف . إلا لجأت إلى التأويل، وإن تفاوتوا في ذلك تفاوتا كثيرا، منهم من وسّع، ومنهم من ضيّق، منهم من قرّب في تأويله، ومنهم من بعّد حتى خرج عن العقل والشرع، والمهمّ أنّ التأويل لا بد منه، فقد يوجبه العقل، وقد يوجبه الشرع، وقد توجبه اللغة، ومن رفض ذلك شرد عن الصواب، وسقط في هوّة الخطأ كما فعل الظاهرية"[3]

وإنما تردّد البعض في قبول التأويل عموما لأنه يقوم على الذاتية المتضمنة الانتصار للرأي، وحشد الحجج لتزكيته، فهو يفتح المجال لتعدّد قراءات النص القرآني، ويطوّع المعاني للأغراض المذهبية والشخصية، فيطمس الحقيقة برداء الأفكار المسبقة، والهوى المتّبع. أمّا ما كان منه على سبيل الاجتهاد، والنظر في المقاصد الشرعية، والسياقات الخطابية فهو يختلف اختلافا كبيرا.

ثانيا: أصناف التأويل البعيد

عطفا على ما بيّناه من **أنواع التأويل، نقف على تصنيف متعلّق بنوعه البعيد من خلال الأهداف التي يسعى إليها أصحابه، والغايات التي تلجئهم إليه، على النحو الآتي:**

1 .1. التأويل المبني على المقاصد

يسلم إذن من التأويل ما كان صحيحا بشروطه المتفق عليها، حتى ولو خالف المفسّر فيه غيره، حيث لا يخرج بذلك عن نطاق الراجح والمرجوح، بالنظر إلى قوة الدليل، ومناسبة السياق. وإنّ الناظر في مقاصد القرآن الكريم، يكثر عنده تجاوز التفسير الموضعي اللفظي إلى الوقوف على معاني التراكيب ومراميها، وينشط في تقديره لربط الآيات بالمقاصد القرآنية الشائعة، ومقاصد الشريعة الذائعة،

---

[3] . القرضاوي، يوسف، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص288،

فيقدّر للحكم علّته، وينزل الموقف منزلته اللائقة التي لا تتجاوزها الظروف، ولا تبليها المستجدّات باعتبار القرآن الكريم كتاب الأجيال المتعاقبة الصالح لكلّ زمان ومكان.

ولقد نقل جمال الدين القاسمي في (محاسن التأويل) عن ابن تيمية قوله في بعض فتاواه:" نحن نقول بالمجاز الذي قام دليله، وبالتأويل الجاري على نهج السبيل، ولم يوجد شيء في كلامنا وكلام أحد منا أنا لا نقول بالمجاز والتأويل، والله عند كلّ لسان، ولكن ننكر من ذلك ما خالف الحق والصواب، وما فتح به الباب إلى هدم السنة والكتاب، واللحاق بمحرّفة أهل الكتاب"[4]

وفسّر (أبو حنيفة) بناء على النظرة المقاصدية النفي من الأرض بالحبس مراعاة للعقاب لأنّ في الحبس حجزا عن الشرّ، بخلاف النفي من البلاد لأنه سيجرّ شرّه إلى مكان آخر، وهو ما راعاه له أهل العلم باعتباره تأويلا بعيدا لمصلحة يراها، فيقولون تأديا: والحامل له على هذا "التأويل البعيد".

2.1. : التأويل انتصارا للمذاهب:

التفسير المذهبي للقرآن الكريم هو كل تفسير يتجه فيه المفسر إلى الانتصار لمذهبه تعسّفا وتحيّزا في التأويل، لدوافع شخصية ونزعات ذاتية .

وقد غطى على هذا الاتجاه انتصار المعتزلة[5] لمبادئهم في تفسير القرآن الكريم، واشتهر في ذلك (الزمخشري) في الكشاف، حيث لم يفوّت أيّ فرصة في تطويع الآيات لخدمة أصول الاعتزال الخمسة: (التوحيد، العدل، الوعد والوعيد،

---

[4] . محاسن التأويل، 6156/17.

[5] . المعتزلة فرقة كلامية ظهرت في القرن الإسلامي الأول، اشتهرت بتغليب العقل في النظر، وشاع عنها تكفير مرتكب الكبيرة. تُنسب في تسميتها إلى اعتزال واصل بن عطاء لحلقة الحسن البصري بسبب الاختلاف في عدة مبادئ، واشتهر من رجالها والمدافعين عنها: الجاحظ، والقاضي عبد الجبار، والزمخشري الذي جعل تفسيره (الكشاف) وعاء لمبادئها الفكرية بفهم خاص لبعض النصوص.

المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتسبيق النظر العقلي على النص، حيث "بالغ المعتزلة في إقرار سلطان العقل، وحاولوا إخضاع العقل للنقل، وقالوا: إذا تعارض النقل والعقل وجب تقديم العقل لأنه أساس النقل، فإذا تحاكموا فإلى العقل يُردّ الحكم، وإذا حاجوا فبحكم العقل، يقرّرون ما يرشد غليه العقل في جرأة، ويأخذون بالنقل إذا ساير العقل والبرهان العقلي"[6]

وروّج ابن حزم لمذهبه الظاهري في تقدير معاني الآيات القرآنية، ففي تفسيره لسبب خطيئة آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة المنهي عنها، قال:" إنّ آدم أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ناسيا بنص القرآن، ومتأولا وقاصدا إلى الخير، لأنه قدّر أنه يزداد حظوة عند الله فيكون ملكا مقرّبا، أو خالدا فيما هو فيه ابدا، فأداه ذلك إلى خلاف ما أمره الله به، وكان الواجب أن يحمل أمر ربه على ظاهره، لكن تأوّل وأراد الخير فلم يصبه"[7]

كذلك ذهب التأويل بعيدا برواد التفسير الإشاري حيث مال بالبعض منهم إلى التفسير الباطني للقرآن الكريم، ابتعادا عن المعنى الظاهر الواضح للآيات إلى معاني غامضة لا تقبلها اللغة، ولا يحتملها السياق. ومن الأمثلة على ذلك ما ساقه (الآلوسي) في تفسيره نقلا عن هؤلاء الذين يلبسون لبوس التصوف زيفا وبهتانا من تفسير (مجمع البحرين) في سورة الكهف بمجمع ولاية الشيخ وولاية المريد، وتفسير ا(لصخرة) التي آوى إليها موسى عليه السلام وصاحبه بالنفس، وتفسير (الحوت) بالقلب المملّح بحب الدنيا وزينتها، و(السفينة) بالشريعة، و(خرقها) بترك الظاهر واتباع الباطن، و(الغلام) بالنفس الأمارة، وقتله بذبحها بسيف الرياضة..[8]

---

[6]. إبراهيم مصطفى إبراهيم، مفهوم العقل في البناء الفلسفي، ص77.

[7]. تفسير القاسمي، 108/2.

[8]. روح المعاني، 33/16 وما بعدها.

وعلى تشعّب وتعدّد المذاهب التي تجرّأ أصحابها على القرآن الكريم يبرز منها الذي سنأتي على ذكره من الاتجاهات بما يسعف به المقام من الشواهد:

أ. تأويل المعتزلة للنصوص القرآنية:

انطلق المعتزلة في تفسير القرآن الكريم من التزامات عقلية، وتعصّب شديد للأصول التي بنوا عليها المذهب، فتعسّفوا في حمل الألفاظ والتراكيب على معاني بعيدة بدل الظاهرة والمتفق عليها في سبيل دعم المذهب بالدليل القرآني.

ويعتبر تفسير (الكشاف) المدونة الأساسية في توضيح ما جنح إليه المعتزلة في تفسير القرآن الكريم، "فمؤهلات الزمخشري العلمية مكنته من تطويع آيات القرآن للدلالات التي يرتضيها هو ومذهبه، دون أن يترك آثار لمساته المذهبية واضحة ظاهرة للعيان، فقد كان يعجن الدلالات بقفازات لا تبقي ولا تذر من آثار التلوّن المذهبي إلاّ لطائف تدقّ على الفكر، تلك القفازات كانت مزيجا من الشرعية اللغوية البلاغية والمنطقية والمذهبية، في ربط بينها خلاب، وتناسق فيما بينها عجيب"[9]

ولقد طوّع (الزمخشري) النحو لتوليد ما يخدمه من المعاني، وخاض في المتشابهات تفتيشا عمّا يسعفه من الشواهد، مخالفا غيره في تفسير قوله تعالى " **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**"(آل عمران7)، حيث جعل الواو هنا عاطفة وليست مستأنفة، فيصبح المعنى: لا يهتدي إلى تأويله الحق الذي يجب أن يُحمل عليه إلاّ الله وعباده الذين رسخوا في العلم، وتصبح الجملة الفعلية (يقولون) حالا من الراسخين[10]

---

[9] . تأويل القرآن عند المعتزلة، ص83.

[10] . الكشاف، 529/1.

وتأكيدا لمذهب المعتزلة في استحالة رؤية الله تعالى حمل معنى الحرف (لن) على النفي الواقع في المستقبل على سبيل الدوام، حيث أوّل قوله تعالى:" **قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**"(الأعراف 143)، فوظيفتها حسبه "هي تأكيد النفي الذي تعطيه (لا)، وذلك أنّ (لا) تنفي المستقبل، تقول: لا أفعل غدا، فإذا أكّدت نفيها قلتَ: لن أفعل غداً"[11]، وإنما يرمي من ذلك إلى إثبات استمرار استحالة رؤية الله تعالى إلى الآخرة.

كذلك يلجأ كثيرا إلى المجازات عدولا عن ظواهر الدلالات إلى خوافيها، ومن ذلك تفسيره للختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار الذي اسند إلى الله تعالى في قوله:" **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**"(البقرة7)، حيث يقول:" لا ختم ولا تغشية ثمّ على الحقيقة، وإنما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل، وأما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم، لأنّ الحقّ لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرها من قبل إعراضهم عنه، واستكبارهم عن قبوله واعتقاده، واسماعهم لأنها تمجّه وتنبو عن الإصغاء إليه .. وأمّا التمثيل فأن تمثّل حيث يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كلّفوها، وخلقوا من أجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية"[12]

وغير هذه الآيات كثير ممّا عقّب عليه (ابن المنيّر) في حاشيته على الكشاف، حيث كان دأب الزمخشري ربط الدلالات بالاقتضاء المذهبي الذي تمثّله الأصول الخمسة ومن خلالها الدليل العقلي.

---

[11]. الكشاف، 504/2.

[12]. الكشاف، 165/1.

وعموما فقد "قرأ المعتزلة القرآن، وفسره من فسره منهم بعقلية المعتزلي، وروح المعتزلي، الذي يؤمن بأفكار فرقته الأساسية: أنّ الإنسان خالق أفعال نفسه، وأنّ الله لا يريد المعصية، وأن ليس لله صفات ثبوتية كالعلم والقدرة والإرادة والحياة.. وأنّ القرآن مخلوق، وأنّ الله لا يُرى في الآخرة، وأنّ مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، لا هو مؤمن ولا هو كافر، ولكنه مخلّد في النار، وأنّ الأنبياء والملائكة والمؤمنين لا يشفعون لمذنب في الآخرة"[13]

ب . تأويل الباطنية للنصوص القرآنية:

التأويل الباطني للقرآن الكريم هو تفسيره على معان مخالفة لظاهره، مما يجافي معاني الكلمات والجمل في القرآن الكريم، دون دليل أو شبهة من دليل. وهذا نجده ظاهرا في تفاسير الباطنية الذين رفضوا الأخذ بظاهر القرآن، وقالوا: للقرآن ظاهر وباطن، والمراد منه: باطنه دون ظاهره.

ومن أمثلة ضلالهم تأويل قوله تعالى: **"وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ"** بأنّ المراد بالصلاة هي العهد المألوف، وسمي صلاة لأنها صلة بين المستجيبين وبين الإمام، وتأويل الصيام بأنه الإمساك عن كشف السر.

وعليه فإنّ "الذين نزعوا إلى النحلة الباطنية، عطلوا دلالة التراكيب، وأنكروا أن تكون المعاني مستفادة منها بطريق الوضع اللغوي، والتأليف النحوي والبلاغي، فجنحوا إلى الإشارات بإبراز الأعداد، وأسرار الحروف، وزعموا ذلك علما خفيا يتلقى ممن عنده بطريق الوراثة، أو الوصاية، أو الهبة، قد اعتبروا معطلين لمعنى الدين، منكرين لحقيقته"[14]

---

[13] . كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص259.

[14] . ابن عاشور، محمد الفاضل، التفسير ورجاله، ص10.

فهذا النوع من التأويل باطل مناف لضوابط بيان مقصود كلام الله تعالى، اتُّخذ ملهاة بيد الجاهلين، يسوّغون به معتقداتهم، ويشبعون رغباتهم، ويثيرون الغموض بدل الكشف والبيان.

ج . التأويل العلمي للنصوص القرآنية:

ظهر هذا اللون من التفسير حديثا نسبيا، في ظل موجة التقدم العلمي، ويقصد به التفسير الذي تستخدم فيه حقائق ونظريات العلوم الكونية الحديثة لفهم بعض الآيات المتعلقة بها مما كان للقرآن الكريم السبق في تقريره، ويشمل ذلك علوم الطبيعة والفلك وعلوم الأرض والكيمياء والبيولوجيا والطب.. وغيرها، مع التوسع إلى علم النفس والاجتماع والاقتصاد. ومن علماء الشريعة من رفض هذا اللون من التفسير، على غرار (الشاطبي) الذي عارض هذا التوجّه في الموافقات، حيث اعتبر الشريعة أمية جاءت على معهود القوم الذين نزلت فيهم فهما حسب مستواهم، ويقول:" ما تقرّر من أمية الشريعة، وأنها جارية على مذاهب أهلها، . وهم العرب . ينبني عليه قواعد منها: أنّ كثيرا من الناس تجاوزوا . في الدعوى على القرآن . الحد، فأضافوا إليه كلّ علم يذكر للمتقدّمين والمتأخرين، من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلوم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها"[15]

وعليه فليس التأويل العلمي البعيد بالجديد ولو كانت غلبته في العصور المتأخرة، حيث جاء في تفسير (ابن كثير): وقال أبو علي الجبائي في تفسيره : " **وإنّ منها لما يهبط من خشية الله** " هو سقوط البرد من السحاب . قال القاضي الباقلاني : وهذا تأويل بعيد ، وتبعه في استبعاده (فخر الدين الرازي) وهو كما قالا ؛ فإنّ هذا خروج عن ظاهر اللفظ بلا دليل" [16]

---

[15] . الشاطبي، الموافقات، 79/2.

[16]. مفاتيح الغيب، 321/16.

وهذا الشاهد أخفّ ربطا بالتفسير العلمي، وإنما أوّل المفسر بالمشاهد من المظاهر الطبيعية في حياة الناس، فلم ير أشبه بالحجر نازلا من السماء من البرد الذي مآله الذوبان، وليس في طبيعته ما في طبيعة الحجر من حقيقة الصلابة، ويكفينا في ذلك أنّ تفسيرا كاملا للقرآن الكريم جاء مقتصرا على هذا الغرض فيما يتوافق وما لا يتوافق من الآيات القرآنية، وهو تفسير الجواهر لصاحبه (طنطاوي جوهري)، والذي عيب عليه كثيرا ليُّ أعناق النصوص، وتحميلها ما لا تحتمل من التأويل العلمي الساذج أحيانا، ربطا بعالم النبات والحيوان، وتخصصات الطب والكيمياء والهندسة والرياضيات وغيرها، فممّا جاء في تفسيره قوله في البسملة في مستهلّ سورة الفاتحة:" «نزلت هذه السورة لتعليم العباد: كيف يتبركون باسم الله - عز وجل - في سائر أحوالهم، وكيف يحمدونه ويستعينون به؟ فيبتدئ القارئ قائلاً: اقرأ متبركاً باسم الله الرحمن المنعم بجلائل النعم: كالسماوات والأرض والصحة والعقل الرحيم المنعم بدقائقها، كسواد العين، وتلاصق شعرات أهدابها المانعات من دخول الغبار المؤذى لها، مع أن النور يلمع من خلالها، وينقل صور المرئيات إلى حدقتها فشبكيتها، فالدماغ، فهذه الدقة في الصنع والحكمة في الوضع التي أباحت لضوء الشمس والكواكب مثلاً أن يلج ومنعت الغبار أن يدخل، يعبر عنها بلفظ الرحيم تتميماً للنعمة، وتكميلاً للهناء والسعادة.

ولما كان أكثر الناس لا يلحظون العجائب الكامنة فيهم، ولا يعرف نفسه إلا قليل منهم، وهم أكابر الحكماء والأولياء؛ وجب أن أبين في هذا المقام - بعض رحمة الله - عز وجل - في العالم المشاهد، ومن هذه العجائب: ما شاهده العلماء الباحثون في أمر النحل والنمل والعنكبوت، (فأما النحل): فتعجب، كيف جعل الرحمن الرحيم له سبلاً مذللةً، فإنه متى فتح زهرة أول النهار ليمتص رحيقها

المختوم ويرجع به إلى الخلية فيضعه فيها، يلهم أن لا يفتح زهرةً في ذلك اليوم، إلا ما كان من جنس تلك الزهرة لرحمة النحل ورحمة الناس، أما رحمة النحل، فإنه لا يعوزه أن يحتال في فتح زهرات أخرى من نوع آخر، فيطول عناؤه، وأما رحمة الناس: فإن ما يعلق برجلي النحلة من حبوب طلع الذكور من النبات، إذا وصل إلى زهرة أنثى علق بها من ذلك الطلع بعضه؛ فأثمر ذلك النبات لحصول الإلقاح بهذه الرحمة العجيبة.

(وأما النمل): فمن عجائب الرحمة الخاصة به: أن الله خلق له حشرةً تسمى (افس) - باللسان الإفرنجي - يحاربها النمل ويغلبها، ومتى غلبها أخذ يستولدها ويربيها ويسميها في ورق الورد ومتى أكلت وشبعت أقبل النمل عليها وامتص منها مادةً حلوةً. فكأنه بقر له يشرب لبنه!

(وأما العنكبوت): فإنها ألهمت النسج البديع بهندسة فاقت هندسة الإنسان، وعلل ذلك العلماء بقولهم: إن هندسة إلهية، وهندسة الإنسان بتعليم البشر، فلذلك يغلط الإنسان، ولا يغلط العنكبوت في الهندسة. ولما كان بيت العنكبوت أضعف بيت؛ ألهمها الله أن تبحث عن صمغ وغراء من أماكنها وأشجارها وتلطخ بها خيوطها التي نسجتها فتكسبها لزوجة، فلذلك لا تمزقها الرياح إذا فاجأتها، ولا الأعاصير إذا ساورتها، وإذا مر بها الذباب التقطته بمادتها اللزجة!

فانظر إلى آثار رحمة الله: كيف كانت المادة الصمغية صائنة بيت العنكبوت الضعيف من التمزيق إذا هبت الزعازع، واهتاجت الأعاصير مع أنها قد تقتلع الأشجار وتخرب المساكن، ثم تكون شبكة صائد وحيلة محتال، هذه هي الرحمة والحكمة.

فإذا ابتدأ القارئ بالتسمية، وامتلأ قلبه بتلك اللحمة، فلا جرم ينطلق لسانه بالحمد، بعد أن أفعم قلبه بالإجلال؛ فيقول: الحمد لله"[17]

لذلك يتعرّض (سيد قطب) للظاهرة حيث يقول:" وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها.. كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه.

إن القرآن كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها، لأنه هو الإنسان ذاته الذي يكتشف هذه المعلومات وينتفع بها، والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان، والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه، بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره، كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان يأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه، وبعد أن يوجد الإنسان السليم التصور والتفكير والشعور، ويوجد المجتمع الذي بسمح له بالنشاط، يتركه القرآن يبحث ويجرّب، ويخطئ ويصيب في مجال العلم والبحث والتجريب، وقد ضمن له موازين التصور والتدبر والتفكير الصحيح.

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة، أما ما يصل إليه البحث الإنساني ـ أيا كانت الأدوات المتاحة له ـ فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة، وهي مقيدة بحدود تجاربه وقيود هذه التجارب وأدواتها.. فمن الخطأ المنهجي بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية.. وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة، أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة تحتوي أوّلا على خطأ منهجي أساسي، كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا يليق بالقرآن الكريم:

---

[17]. الجواهر في تفسير القرآن الكريم، 5/1.

الأول: هو الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أنّ العلم هو المهيمن والقرآن تابع، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم، أو الاستدلال له من العلم..

والثاني: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته، وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة، تعالج بناء الإنسان بناء يتفق ـ بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية ـ مع طبيعة هذا الوجود وناموسها الإلهي، حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله..

والثالث: هو التأويل المستمر ـ مع التمحّل والتكلّف ـ لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر، وكلّ يوم يوجد فيها جديد، وكلّ أولئك لا يتفق وجلال القرآن، كما أنه يحتوي على خطأ منهجي"[18]

وعليه فالأمر لا يسلم دائما، وإنما ينضبط التفسير العلمي بقيود منهجية وموضوعية أبرزها:

ـ التعويل على الحقائق لا على الفرضيات.

ـ تجنّب التكلّف في فهم النص.

ـ التفريق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي.

د ـ تأويل الحداثيين للنصوص القرآنية:

برز في العصر الحديث تيار تأويلي يسعى إلى تثبيت فهم مغاير للنص القرآني، ويجاهر بالتمرّد عن القواعد المرعية في التفسير منذ بدأ هذا العلم في القرن الأوّل للهجرة، فتحت عباءة التأويل ذهب أنصار هذا التيار بعيدا في تجريد النص القرآني من قدسيته، وإعطاء القارئ صلاحيات واسعة في التقدير ولو لم يكن له الباع الكافي في اللغة التي هي وعاء التنزيل. والردّ عليهم فيما يدّعون تولاّه الكثير من العلماء، وأكده الشيخ القرضاوي في قوله: "إنهم يريدوا أن يعيدوا تفسير

[18] ـ في ظلال القرآن، 180/1.

وقراءة القرآن. إنهم يفسرون القرآن ويقرؤونه بقراءة يسمونها معاصرة. إنها قراءة لا تبالي بما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من أحاديث. ولا بما جاء عن الصحابة من تفاسير ولا بما جاء عن التابعين ولا عن مفسري ولا بما جاء عن التابعين ولا عن مفسري الأمة طوال العصور. يريدون أن يكونوا لهم فهم جديد إلى دين جديد"[19]

وهذه الحداثة التي اقترنت بالدراسات النصية جريا على تطور النظريات الغربية سرعان ما نفثت سمومها في القرآن الكريم باعتباره نصا أدبيا صالحا للدراسة، لا تحول دون الباحثين فيه القداسة، " فالاتجاه الحداثي في القراءة والتفسير يصرح بشكل واضح أن الطريقة القويمة في قراءة الخطاب القرآني وتدبر معانيه والوقوف على مقاصده هي القراءة المتحررة من ثقل التقليد، والمتجردة من قواعد التهاويل، وقواعده وضوابطه وعير الخاضعة لأية سلطة غير سلطة القارئ المتحكم في المعنى، فهو له الأمر في الاختيار وما القواعد إلا قيود مكبلة، ومقيدة لهذه الحرية. بما في ذلك ضوابط التفسير، والتأويل التي أصلها علماء التفسير، والعمل على تخطي للموروث الثقافي الذي أنتجه المفسرون والمحدثون والإخباريون في معالجتهم للنص على امتدادات التاريخ"[20]

والأصل في القرآن الكريم البيان والوضوح، ولا أساس لما يدفع هؤلاء وغيرهم إلى التكلّف في التماس المعاني البعيدة، والبحث عن الإشارات الخفية التي قد لا يحتملها النص.

فالتأويل بهذا المفهوم يتجاوز كلّ الضوابط المقررة في علم التفسير، ويدفع إلى الجرأة في قراءة النص القرآني بحسب ما يراد له أن يُقرأ عليه، انتصارا

---

[19] . برنامج فقه الحياة، القراءات الجديدة للقرآن الكريم، أوت 2009م.

[20] . التأويلية الجديدة وقراءة النص القرآني: بحث في التوجهات والتعثرات، محمد بنعمر، ملتقى أهل التفسير، على الرابط: https://vb.tafsir.net/forum

للنزعات الشخصية، ودعما للمواقف الظرفية، عبر ليّ أعناق النصوص، والذهاب بمعانيها بعيدا دون رعاية للسياقات التي جاءت فيها، ولا للظروف التي نزلت فيها، فالقرآن الكريم الصالح في خطابه لكلّ زمان ومكان إنما يستمرّ فينا ما اتّفق عليه تقدير معانيه في الأفهام، مع مساحة للاختلاف في التأويل تظلّ مقيّدة بظروفها التنزيلية، اللغوية، السياقية، والمقاصدية التي لا يتصدى لها إلاّ من كان له علم بروافد التأويل من أسباب النزول، وفقه اللغة، وتقدير مقاصد الكلام. " فالتأويل للنص بهذا التحديد جهد ذاتي يخضع فيه النص لتصورات القارئ ومفاهيمه وأفكاره القبلية... وتبعا لهذا فإن هذا المنهج التأويلي يعمل على إخضاع النص الديني بقوة لتصورات القارئ القبلية تحقيقا لرغبات هذا القارئ الذاتية"[i]

وبهذا الغرض، وهذا المعنى، لا يخرج هذا التأويل عن المذهبية، لأنه يذهب بعيدا في تفسير الآيات القرآنية بمقتضى ما يريده، وما يقوّي به جانبه من المعاني والدلالات. مما يجرّدها من الموضوعية، ويسلبها الروح العلمية. بل ويسير في اتجاه إحداث قطيعة معرفية مع الجهود السابقة الخادمة للنص القرآني إرضاء لنهج يُتطلّب، وليس إحقاقا لحقّ يتوجّب.

لقد اتّسم هذا التأويل للنصوص القرآنية بالتسرّع في إصدار الأحكام، وتجريد النص من معانيه المتفق عليها إلى معان يتوهّمها المفسر الحداثي، ويطلبها بحرص مسبق للوصول بالنص القرآني إلى مسايرة الفكر السائد.

وعليه فليست الحداثة المعاصرة سوى حلقة في سلسلة الجرأة على كتاب الله تعالى، وتجاوز الحدود على النحو الذي سبقهم إليه أهل مذاهب أخرى بتفاوت في النوايا والمنطلقات.

4. خاتمة:

تراوح تفسير القرآن الكريم بين التفسير الموضعي المتعلق بالمفردة في دلالتها، والموضوعي الذي عُني بالمعاني في سياقاتها، وتنوّع بين الوقوف على ظواهر

المعاني، والغوص المتعمّق في تأويلات موضوعية مقاصدية بقيت محمودة ما بقي القصد معها سليما، والدليل عليها قائما، بخلاف ما طرأ من تجاوزات أهل المذاهب المطوّعين للآيات القرآنية من أجل إشباع الرغبات الذاتية، وتقرير القناعات المجافية للصواب.

وإنّ الذي نخلص إليه من هذه الدراسة هو أنّ قابلية النص القرآني للفهم المتعدّد، وانفتاحه على التأويل المتجدّد لا تعني بحال التعسف في إلصاق الدلالات بألفاظه وتراكيبه، ولا الذهاب بعيدا في تقدير معاني لا يتحمّلها السياق الذي جاءت فيه.

وإنّ جنوح المفسّر لتقدير مصلحة، أو إظهار مقصد نهج محمود، يتطلّب فقط استحضار الدليل، وقوة التأصيل، ومراعاة السير في فلك المجمع عليه من الفهم ولو مع الميل القليل.

أمّا الجنوح إلى خدمة المذهب على حساب التفسير فإنه يفقد صاحبه كلّ قيمة علمية أو تفسيرية.

وإنّ التجديد في التفسير لا يعني بحال الخروج عن الضوابط الموضوعة له، ولا الشروط المشدّد عليها في المفسّر، فالدلالات القرآنية ليست جامدة، كما أنها ليست من السعة بحيث تضمّ المتناقضات، وتستوعب الأوهام بحجة التأويل.

وإذ لخّصت الموضوع في هذه العجالة إيجازا وتركيزا فإنه يبقى صالحا للتوسّع، والتمدّد تنظيرا وتطبيقا على النحو الذي تسعف فيه الدراسات العلمية الأكاديمية تعميما للظاهرة، أو تخصيصا بمذهب من المذاهب، وهذا ما استأمن عليه أهل العلم والاختصاص للسعي فيه.

ومن جهتي أسأل الله تعالى العون والتوفيق للتناول المعمق للظاهرة في فرص لاحقة، سعيا لخدمة القرآن الكريم، وخدمة لهذا الدين العظيم.

*** *** ***

[i] ـ التأويلية الجديدة وقراءة النص القرآني، محمد بنعمر.

مراجع الدراسة:

الآلوسي، شهاب الدين، روح المعاني

إبراهيم مصطفى إبراهيم، مفهوم العقل في البناء الفلسفي، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع، بيروت.

ابن عاشور، التفسير ورجاله، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، الكتاب الثالث عشر، 1970م.

جوهري، طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن الكريم، مكتبة الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1350هـ.

الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1981م.

الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة.

الزمخشري، أبو القاسم، الكشاف، تحقيق: أحمد عبد الموجود وعلي معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، 1998م.

سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة.

السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، مجمع فهد لطباعة المصحف الشريف.

الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، دون تاريخ.

الطبري، ابن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، 1984م.

القاسمي، جمال الدين، محاسن التأويل، طبعة الحلبي، القاهرة.

القرضاوي، يوسف، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة، 2000م.

الرسائل العلمية:

سوماني خالد، تأويل القرآن عند المعتزلة من خلال تفسير الكشاف للزمخشري، رسالة ماجستير، جامعة مولود معمري ـ تيزي وزو ـ، 2011م.

المقالات:

التأويلية الجديدة وقراءة النص القرآني: بحث في التوجهات والتعثرات، محمد بنعمر، ملتقى أهل التفسير، على الرابط: https://vb.tafsir.net/forum